دروس من فتح مكة 21.3.2025

رمضان شهر الجهاد ، شهر خاض فيه المسلمون معاركهم العسكرية وحققوا فيه انتصاراتهم الكبرى

ففي رمضان .. كانت غزوة بدر وفتح مكة ومعركة القادسية وفتح الأندلس ومعركة بلاط الشهداء وفتح عمورية ومعركة الزلاقة وعين جالوت ومعركة حطين والتاريخ مليء بالمعارك والفتوحات التي كانت في أيام رمضان

وفي مثل يوم أمس العشرين من رمضان من السنة الثامنة للهجرة بعد أن نقضت قريش أحد بنود صلح الحديبية بإعانتها لبني بكر بالهجوم على خزاعة حليفة المسلمين ، كان رسول الله بجيشه الذي بلغ تعداده عشرة آلاف مقاتل يتمركز في وسط وأطراف مكة

في معركة نصر مؤزر سماها أهل السير بفتح مكة مستمدين هذا الاسم من قول الله تعالى (**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا**)

في ذكرى فتح مكة سنقف لنتعلم من رسول الله دروسا في الإدارة العسكرية والقيادة السياسة والإدارة التربوية

وأول هذه الدروس : تقوية الجبهة الداخلية

فهذا النصر العسكري تم تحقيقه بعد التقدم الأمني حين أمن السلمون خطر القبائل المحيطة بالمدينة ، والتقدم الاقتصادي نتيجة ما غنمه المسلمون من خيبر و التقدم السياسي الذي أظهر قريش ناقضة للعهد أمام القبائل العربية

وهنا نتعلم أن تقوية الجبهة الداخلية اقتصاديا وأمنيا وسياسيا يفتح الباب الواسع للنصر العسكري

ثانيا : الكتمان أثناء الإعداد :

فهذه المعركة كتم فيها رسول الله خبر الوجهة حتى عن أقرب الناس إليه كأبي بكر الصديق وزوجته عائشة ، حتى أن الصديق سأل ابنته عن مقصد رسول الله فقالت (ما سمى لنا شيئا)

ليتعلم القادة العسكرين في الدرجة الأولى أهمية الكتمان وإخفاء الخطط العسكرية حتى على

أقرب الناس لهم وأوثقهم عنده لأن الخبر قد يخرج من أحدهم ولو بنية حسنة فيحدث بسببه مالا يحمد عقباه

ولإتمام هذا الكتمان أخرج رسول الله سرية قبل المعركة نحو الوادي في اتجاه الشام ليجعل الكل يظن أن العدو في هذا الاتجاه

ومن هذا نتعلم فن تظليل العدو عن الهدف وصرف نظره إلى مقصد أخر

واتماما لكتمان الخبر كون رسول الله كتيبة الأنقاب بقيادة الفاروق عمر رضي الله تمنع أي رجل غير معروف بأن يتجه نحو مكة ، والهدف من ذلك منع العدو من الحصول على أي معلومة

ثالثا : الاستعانة بالله بعد الأخذ بالأسباب

وهذا دأبه وديدنه عليه الصلاة والسلام إيمانا منه وتعليما لأصحابه بأن النصر من الله سبحانه وتعالى (**وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ**)

وكما شاهدناه يوم بدر يدعوا ويتضرع ، نشاهده في ختام الإعداد لفتح مكة يدعو الله قائلا : (اللهم خذ على اسماعهم وأبصارهم فلا يرونا إلا بغتة ولا يسمعون بنا إلا فجأة)

فكانت نتيجة الاستعانة بالله جليلة في التدخل الإلهي لفضح رسالة حاطب بن أبي بلتعة لما كتب كتابا إلى أهل مكة يخبرهم بتحرك النبي نحوهم ، وأرسلها مع امرأة مسافرة أخفت الكتاب في ضفيرة شعرها ، فأرسل الله جبريل إلى رسول الله يخبره ، فأمر رسول الله علي والزبير والمقداد ليلحقوا بالمرأة ويأخذوا منها الكتاب

واستدعي حاطب للتحقيق

لأنه ارتكب ما يسمى اليوم بالخيانة العظمى ، فبين أنه فعل ذلك ليحمي قرابته في مكة ولم يفعل هذا ارتدادا ولا رضا بالكفر ، فقال رسول الله (**أما إنه قد صَدَقكم**)

والنبي صلى الله عليه وسلم هنا يتعامل مع جنوده بمبدأ الثقة بعيدا عن التشكيك رغم خطأهم البين

عمر رضي الله عنه يقول : يا رسول الله : دعني أضرب عنق هذا المنافق فيرد عليه رسول الله (**إنه قد شهد بدرا وما يدريك لعل الله اطلع على أهل**

بدر فقال : افعلوا ما شئتم فقد غفرت لكم)
فرسول الله هنا : يبرر لأخيه ويقدم العذر لأحد جنوده ويُذَكر بمحاسنه وفضائله

ومن هذا نتعلم :
أن أهل السبق في الدعوة والجهاد والمجاهدة لا ينبغي أن ننسى ماضيهم وحسناتهم وما قدموه من خير لهذا الدين إذا أخطأوا أو اختلفنا مهم

رابعا : الحرب النفسية
والنبي صلى الله عليه وسلم استخدمها على القائد الأعلى مباشرة

حين أمر العباس بن عبدالمطلب (**بأن يأخذ أبو سفيان ويقف به في مضيق الوادي حتى تمر به جنود الله فيراها**) وهذا جزء من الحرب النفسية المؤثرة على المعنويات ، وهنا استهدف رسول الله زعيم مكة ، فخلق الهزيمة في نفسه
فلما رأى أبو سفيان الجيش وخاصة كتيبة المهاجرين والأنصار أدرك قوة رسول الله فقال : (**ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة** ، والله : يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيما) ،

فقال له العباس : إنها النبوة
ولذلك .. عاد أبو سفيان إلى مكة وأوقف كل الترتيبات للمواجهة وحاول البعض أن يصفه بالخائف ، فقال : (لا قبل لكم بهم ولا طاقة)

وقفة : مع قول العباس (إنها النبوة)
إنها كلمة عظيمة أجراها الله على لسان العباس ليبين أن رسول الله قضى حياته وكل ساعات عمره لدعوته وتبليغ رسالة الله إلى الناس ولم يقضها لإشادة ملك لنفسه في الأرض أو الإحياء قومية أو عصبية يصنع من خلالها سلطانا له

خامسا : خطة الاقتحام
دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة من جهاتها الأربع ، وجعل القيادة لأربعة من امهر القادة العسكرين احتراما للتخصصات وبهدف الاستفادة من الخبرات ، والقادة هم : خالد بن الوليد والزبير بن العوام وأبو عبيدة بن الجراح وسعد بن عبادة

دخل الجيش الإسلامي مكة من الجهات الأربع في آن واحد ، فأحدث ارباك لمن كان يفكر بالمواجهة

وهنا تجلت الحكمة العسكرية وحسن إدارة النبي للعدد الكبير الذي كان معه في هذه المعركة

وفي لحظة دخول مكة تم اعلان حضر التجوال ومناداة الناس بأنه من دخل دار أبا سفيان فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ومن دخل داره فهو آمن

وحرص رسول الله على إخماد الفتن في مهدها ومن ذلك ما قاله سعد بن عبادة : (**اليوم يوم الملحمة اليوم نستحل الكعبة**) ، فنقل رسول الله راية القيادة منه إلى ابنه قيس بن سعد بن عبادة مراعاة لشعور الأب كان الاختيار للأبن

سادسا : هيئة الدخول

دخل القائد المنتصر إلى أرض العدو محررا وفاتحا بهيئة الخاشع المتواضع لا الفاتح المتعالي ، **دخل حانيا رأسه** تواضعا لله حتى أن ذقنه كاد يلمس ظهر راحلته ، دخل وهو يقرأ سورة الفتح مستشعرا نعمة الفتح وغفران الذنب

(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا)

سابعا : العفو عند المقدرة

وتجلى هذا العفو من خلال اعلان العفو العام ، فقد نال أهل مكة عفوا عاما من رسول الله حين اجتمعوا قرب الكعبة ينتظرون حكمه فيهم ، **فوقف وسأل** (ما تظنون أني فاعل بكم) **فقالوا** : خيرا أخ كريم وابن اخ كريم ، **فقال لهم** : **(لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)** اذهبوا فأنتم الطلقاء

وفي مقابل هذا الصفح الجميل كان الحزم الأصيل ، حين استثنى رسول الله من قرار العفو العام بضعة عشر رجل وامرأة وأمر بقتلهم وإن وجدوا متعلقين بأستار الكعبة ، وهذا من مميزات القيادة الحكيمة والرشيدة

ثم تكرر هذا العفو من رسول الله مع عثمان بن طلحة حين أخذ منه مفاتيح الكعبة ، ثم بعد أن دخلها ونزع الصور التي فيها ، أعاد المفاتيح لعثمان **وقال له : اليوم يوم بر ووفاء**

ثامنا : هدم مظاهر الجاهلية

والنبي صلى الله عليه وسلم ركز في هذا الموقف المهيب على مظهرين

المظهر الأول :

اسقاط التفرقة بين الناس على أساس اللون أو الجنس أو النسب وذلك حين أردف خلفه عند دخوله مكة فاتحا أسامة بن زيد وهو ابن مولى رسول الله ولم يردف أحدا من أبناء هاشم إرساء لمبدأ المساواة بين الناس ، ثم دخوله مع بلال بن رباح إلى جوف الكعبة والصعود به إلى سطحها

والمظهر الثاني : هدم الأصنام

دخل رسول الله إلى الكعبة وحمل عصاه وبدأ هدم الأصنام بنفسه وهو يردد قول الله (**وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا**)

فياله من مظهر رائع لنصر الله وعظيم تأييده لرسوله والأصنام تتساقط على وجهها بين يديه بعد واحد وعشرين عام من الدعوة

تاسعا : عاقبة الصبر النصر

بعد أن تجمع الناس حول الكعبة نادى رسول الله بلال بن رباح وأمره أن يصعد على ظهر الكعبة ليؤذن ،

فإذا بالصوت الذي كان يهمس في صحراء مكة تحت سياط التعذيب (أحد أحد) أصبح يصدح في أفاق مكة ومن على أشرف ما فيها على سطح الكعبة (الله أكبر .. الله أكبر)

وصدق الله حين قال

(فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا)

وقفة الختام :

وعادت الحرب في غزة بعد أن عجز العدو اخضاع المقاومة للتنازل نقض العهد اليهود وهذا طبعهم وخلال يومين عادت غزة تودع أبنائها إلى الجنة من جديد ، وللأسف الأهداف تم تحديدها عن طريق فرق الإغاثة العربية ، ولعل الله يطهر الصف فلا يكون لأحد قدرة على ادعاء نصرهم أو نصرتهم

وإخواننا في غزة يقاتلون وبين أعينهم قول الله

(وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا)

وقول رسول الله (لا يضرهم من خذلهم)

ونحن يجب علينا أن ننقذ أنفسنا من خذلانهم وألا نكن ممن خذلهم وذلك باستشعار الواجب نحوهم من خلال :

- احياء قضيتهم وديمومة الحديث عنهم
- الدعاء الخالص في السجود بأن يتولى الله أمرهم
- الإعداء التربوي والإيماني اقتداء بهم فأبناء غزة قبل عودة الحرب بيوم واحد كانوا في تظاهره قرآنية للمئات يسردون فيها المصحف كاملا في جلسة واحدة
- لا نبكي من أمريكا التي تقتل إخواننا في غزة ونضحك أمريكا نحن هنا بإحياء ثقافتها وتبني مشاريعها والسير على خطاها بالانفلات والانفتاح

لتضل ثقتنا بالله قوية كما هي ثقتهم في ظل الابتلاء والامتحان كما قال أحدهم لعل الله لا يريد لنا ختاما بالهدنة وإنما بالنصر لعل الله يريد لنا فتحا كفتح مكة بعد أن خضنا معركة كمعركة بدر

فأسأل الله أن يشفي صدورنا بنصرهم إنه على كل شيء قدير